توطئة :

علم العروض : تعريفه ونشاته

الشعر فن من الفنون الجميلة مثل الرسم ، والنحت وغيرهما من الاشكال التعبيرية التي يستعملها الانسان ويحملها مشاعره وعواطفه للتاثير بها في نفوس المتلقين . ولكل فن وسائل خاصة به - كالألوان بالنسبة الى الرسم - يعتمد عليها ويحصل من أدائها ما يسمى بالجمال الفني . والشعر فن يقوم على حسن التأليف بين الكلمات ، والأصوات والعبارات ذات الايقاعات النغمية المنسجمة التي تكسبه طابعا مميزا يختلف به عن الكلام العادي والنثر الفني. والجمال هو الغالب عليه في كل مقوماته من جزالة ألفاظه الى متانة تراكيبه ومن انسجام أصواته الى عذوبة موسيقاه . وهو في أغلب أحواله يخاطب العاطفة ، ويسحر الأفئدة ويشنف الآذان لأنه يجمع في ذاته بين قوة التعبير ، وبراعة التصوير واطراد الوزن الموسيقى الذي ينتهي بنغمة معينة تدعى القافية . ولذلك عرفه علماؤنا القدامى على أنه الكلام الموزون المقفى مؤكدين على أهم خاصية فيه وهي الموسيقى .

وبسبب هذه الخاصية الموسيقية الموجودة في الشعر كان لابد من قيام علم يختص به ويقتصر عليه ، فيبحث في أجزائه وينظم أوزانه ويضبط القواعد التي تحكمه. وهو ما يسمى بـ «علم العروض » أي الميزان الذي يعرض عليه الشعر أو يوزن به لمعرفة صحيحه من فاسده. والإلمام بهذا العروض ضروري للشاعر وللمتذوق للشعر والتعريف به واجب علمي لتعميم الفائدة وتدريب النشىء على قراءة الأشعار العربية قراءة سليمة .

Scanné avec CamScanner

١ - المعنى اللغوي :

جاء في لسان العرب لابن منظور الافريقي في مادة (ع ر ض) له أمرٌ أي ظهر له وبدا وعَرَضَ يَعْرِضُ الشيء عليه بمعنى أراه إياه وأظهره له وأبرزه اليه : « استُعمل فلان على العَروض ، وهي مكة والمدينة واليمن وما حولها ، قال لبيد : تقاتل ما بين العَرُوض وخَثْعَمًا اي ما بين مكة واليمن . والعَروض : الناحية يقال : أخذ فلان في عروض ما تعجبني أي في طريق وناحية ، قال التّغلبيّ : عَروض ، اليها يلجؤون ، وجانب ... والعَروض : المكان الذي يُعارضك اذا سرت . وقولهم : فلان رَكوض بلا عَروض أي بلا حاجة عرضت له ... قال ابن سيده : والعَروض مكة والمدينة ، مؤنث . وفي حديث عاشوراء : فأمر أن يُؤْذِنوا اهل العروض، قيل : أراد من بأكناف مكة والمدينة ... ويقال : أخَذَنا في عَروض مُنْكِرَة يعني طريقا في هبوط ... وقيل : العَروض (من البعير) الذي إن فاته الكلأ أكل الشوك ... والعَروض : الطريق في عُرض الجبل ، وقيل : هو ما اعترض في مَضيق منه ، والجمع عُرُض. وفي حديث أبي هريرة : فأخذ في عَروض آخر أي في طريق آخر من الكلام . والعروض من الإبل : التي لم تُرَضْ ... وعَروض الكلام : فحواه ومعناه . وهذه المسألة عَروض هذه أي نظيرها . ويُقال : عرفت ذلك في عَروض كلامه ومعارض كلامه أي في فحوى كلامه ومعنى كلامه ».

وهي المعاني ذاتها التي أوردها الجَوْهَري في معجمه الصحاح في اللغة والعلوم والزّبيدي في تاج العروس من جواهر القاموس مع اضافة دلالات آخرى في قوله : والعَروض (الكثير من الشيء) يقال : حي عَروض أي كثير نقله ابن عبّاد . والعَروض (الغيم) هكذا في الأصول بالياء التحتية وهو مع قوله (السحاب) عطف مرادف أو هو تكرار ... وقال الفراء : العَروض (الطعام) نقله الصاغاني ».

Scanné avec CamScanner

ويظهر ممّا تقدّم أن لفظة << عروض >> على وزن << فعول >> - وهو أحد أوزان المبالغة السماعية - المشتقة من الفعل الثلاثي عَرَضَ يَعْرِضُ عَرْضًا لها في العربية معان مختلفة أهمها اسم مكان والناحية والطريق . ومن استعمالاتها المجازية تطلق العروض ، وهي مؤنثة لا جمع لها لأنها اسم جنس ، على ميزان الشعر كما في الصحاح . قال الزبيدي في تاج العروس معددا أسباب تسمية علم العروض بذلك : << سمي به (لأنه يظهر المتّزن من المنكسر) عند المعارضة بها وقوله به هكذا في النسخ وصوابه بها لأنّها مؤنثة كما سيأتي ، (أو لأنّها ناحية من العلوم) أي من علوم الشعر كما نقله الصاغاني ، (أو لأنها صعبة) فهي كالناقة الّتي لم تذلل ، (أو لأن الشعر يُعرض عليها) فما وافقه كان صحيحا وما خالفه كان فاسدا وهو بعينه القول الأوّل ونص الصحاح لأنّه يُعارض بها (او لأنه ألهمها الخليل) بن احمد الفراهيدي (بمكّة) وهي العروض وهذا الوجه نقله بعض العروضيين >> .

والعروض جمعها أعاريض على غير قياس من إعْريض - والأصح أن تجمع على أعارض - اسم الجزء الّذي فيه آخر النصف الأول من البيت أي التفعيلة الأخيرة من الصدر . والعروضيّ في اللغة نسبة الى العروض العالم بعلم معرفة أوزان الشعر .

٢ - التعريف الاصطلاحي :

قال الخليل بن احمد في كتاب العين معرفا العروض لغة واصطلاحا : << عروض الشعر لأن الشعر يعرض عليه ، ويجمع أعاريض وهو فواصل الأنصاف ، والعروض تؤنّث والتذكير جائز ، والعروض طريق في عرض الجبل ، وهو ما اعترض في عرض الجبل في مضيق ويجمع عروض >> .

فالعروض إذاً هو اسم لعلم يُعرض عليه الشعر لمعرفة صحيح وزنه من فاسده ومتّزنه من مختلّه . ويرى ابن خَلِّكان في معجمه التاريخي الشهير وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان بأن الخليل أطلق على علمه اسم العروض تيمّنا بمكّة التي من أسمائها العروض حين استجاب الله لدعوته وألهمه فيها علماً لم يسبق اليه أحد .

Scanné avec CamScanner

وأيًّا ما كانت التعليلات في شأن تسمية العلم الذي يختصّ بدراسة قواعد الوزن الشعري أو موسيقى الشعر . فإن أوضح تعريف له موجود في كتاب الاقناع في العروض وتخريج القوافي لأبي القاسم اسماعيل بن عبّاد القائل : « هو ميزان الشعر ، به يُعرف مكسوره من موزونه ، كما أنّ النحو معيار الكلام به يُعرف معربه من ملحونه » . فالعروض للشعر هو كالنحو بالنسبة الى اللغة لامناص منه ومن معرفة قواعده وأصوله التي تيسّر للشاعر الموهوب وغير الموهوب نظم الشعر وللقارىء قراءته قراءة صحيحة .

٢ - نشأة علم العروض :

لم يكن عرب الجاهلية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين في حاجة الى علم يعلمهم فن النظم ، وانما كانوا يقولون الشعر عن سليقة على أوزان أو بحور يعرفونها معرفة جيدة ويدركون ما فيها من زحافات وعلل مختلفة .ولعل معرفتهم الفطرية الجيدة بلغتهم وفنون الكلام هي التي جعلتهم يستغنون عن وضع القواعد والمصطلحات الملائمة للنحو ، والصرف ، والعروض والبلاغة كما حدث ذلك فيما بعد . فقد كانت العربية تجري على ألسنتهم مجرى السليقة دونما إلمام مسبق بقواعد النحو ، وفيها كانوا يصوغون أفكارهم وبها يعبرون عن مشاعرهم شعرا ونثرا من غير احتياج الى علم يسترشدون به إلاّ الحذو على طرائق الأسلاف ،

ومعنى هذا أنّ ما قالوه من شعر لم يكن خاليا من كل عروض لعدم اهتمامهم بتقنينه في علم أو وضعه في كتاب يحفظه من عوادي الزمان ويتوارثه الخلف عن السلف . فالشعر الجاهلي جميعه موزون ومقفّى لأن قائليه كانوا على دراية بأوزانه على تباينها . وظلّ الأمر كذلك حتى انتشرت العربية بانتشار الاسلام في مشارق الأرض ومغاربها ودخلت أقوام أعجمية في الدين الجديد واضطرّت الى استعمال لغته لتأدية الفرائض والمناسك ، فأخذ اللحن يشيع فيها وقلّت معرفة المستعربين بالشعر العربي وأوزانه . وهنا ظهرت البواعث لجمع اللغة العربية ووضع القواعد التي تحفظها من سوء استعمال المتكلمين لها ، فانكبّ ثلة من العلماء الأفذاذ على وضع علوم النحو ، والصرف ، والعروض والبلاغة لصونها من شوائب التشويه ولمساعدة

Scanné avec CamScanner

أصحابها على استعمالها الاستعمال الصحيح .

وهكذا نشأ علم العروض في القرن الثاني الهجري على يد الخليل بن أحمد الّذي استخرج من الشعر الجاهلي عن طريق الاستقراء عددا من البحور ، وحصر ما يعتور تفعيلاتها من تغييرات وأعطاها أسماء صارت مصطلحات تُعرف بها الأن . كما ضبط القوافي ووضع لها أسماء خاصة بها ، فأكمل بذلك علم موسيقى الشعر .

وأغلب الظن أنّ هذه النشأة كانت عربية محضة وإن ادّعى بعض المؤرخين بأن الخليل اسْتقى علمه من منابع أجنبية واستلهمه من العروض اليوناني ، أو الفارسي أو السنسكريتي . وليس ثمّة في الحقيقة ما يؤيّد قول القائلين بالتاثر لانه لم يثبت عن الخليـــــــل معرفته لتلك اللغات (١) وثقافاتها و لأن العروض الغربي مبني على المقاطع الصوتية بينما العروض العربي قائم على التفعيلة المركبة من عدد من الحركات و السواكن . فأين هي دلائل هذا التأثر الذي لا ننفي وجوده في علوم أخرى كالنحو ، والفلسفة والمنطق ؟ وهل يجب أن نتبع الموضة الشائعة وأن ننسب كل ما هو أصيل عند العرب الى غيرهم من الأقوام الذين احتكوا بهم في فترة من فترات تاريخهم الطويل؟ .

وعلى هذا الأساس نقول : إن العروض الذي هو موسيقى الشعر لا يمكن أن يكون هو نفسه عند سائر الامم لأن تذوّق الموسيقى يختلف باختلاف طبائع الناس وبيناتهم الجغرافية . فموسيقى الشعر الاغريقي ليست موسيقى الشعر العربي وعروض هذا ليس عروض ذاك .

---

(١) وما أغرب قول أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي الاندلسي المتوفى سنة ٩٨٩ للميلاد في كتابه طبقات النحويين واللغويين : << ويروى أن ملك اليونانية كتب الى الخليل كتابا باليونانية، فخلا بالكتاب شهراً حتى فهمه ، فقيل له في ذلك ، فقال : قلت انه لابدّ له من أن يُفتح الكتاب ببسم الله أو ما أشبهه ، فبنيت أول حروفه على ذلك ، فاقتاس لي . فكان هذا الأصل الّذي عمل له الخليل كتاب المعمّى >> ! وهو كلام لا يحتمل التصديق لأننا لا نعرف هوية الملك اليوناني ولا لماذا كتب الى الخليل بالذات من دون غيره من العلماء ؟ ثم لماذا قضى الخليل في ذلك نص رسالته شهرا كاملا وما العلاقة بين هذا وتاليف الخليل لكتاب المعمّى ؟

Scanné avec CamScanner

وتظهر أصالة العروض العربي في خصائصه الكثيرة التي تميّزه من سواه كتأليف البيت من شطرين متساويين وزنا - وهما مصراعاه - لاحتوائهما على مجموعة من التفاعيل أو الأجزاء المتساوية بعضها يبدأ بوتد وبعضها بسبب وتسمى التفعيلة الأخيرة من الشطر الأول عروضا ومن الشطر الثاني ضربا . وهذا كاف لاثبات أن عروض الشعر العربي كان يجري على موسيقى معيّنة لايعرفها ويحسن تذوقها إلاّ العرب .

٤ - الخليل واضع علم العروض :

أجمع علماء التراجم والأدب مثل حمزة بن الحسن الأصفهاني (ت ٩٦١) في كتابه التنبيه على حدوث التصحيف ، وياقوت الحموي (ت ١٢٢٩) في معجم الأدباء ، وعلي ابن يوسف القِفْطيّ (ت ١٢٤٨) في إنباه الرواة وابن خَلِّكان (ت ١٢٨٢) في وفيات الأعيان على أنّ الخليل هو أوّل من ابتكر علم العروض واستخرجه إلى الوجود وحصر أشعار العرب في خمسة عشر بحرًا زاد عليها تلميذه الأخفش الأوسط - أبو الحسن سعيد بن مَسْعَدَة المُجاشعيّ المتوفى سنة ٨٣٠ للميلاد - بحرًا سمّاه المتدارك .

و كلّ المعطيات الترجمية تؤكّد على أنّ الخليل غير مسبوق في وضع علم العروض وأنّه اخترعه اختراعًا من دون الاحتذاء على مثال تقدّمه. ولا غروى في ذلك لأنّ الخليل كان رجل ابتكارات عديدة : فهو أول مبتكر لفكرة المعاجم العربية بتأليفه كتاب العين (١)،

---

(١) هو أول قاموس عربي جمع فيه الخليل مواد العربية المعروفة في أيامه ورتبها على مخارج الحروف معتمدا على النطق لا على الترتيب الأبجدي . فبدأ بالحروف الحلقية وفي مقدمتها العين وانتهى بالحروف الهوائية وهي (و . أ . ي) . وسمي الكتاب بأول حروفه من باب تسمية الكل بالجزء . ويقال إنّ الخليل بدأ تأليف معجمه في خراسان وأتمّه بعد وفاته الليث بن المظفر بن نصر بن سيار . و قد أُلّفت حوله كتب عديدة منها المدخل الى كتاب العين للنضر بن شميل (ت ٢٠٣ هـ) ، واستدراك على العين للفضّل بن سلمة (ت ٢٥٠ هـ) ، ومختصر العين لابي بكر الزُبيدي (ت ٢٧٩ هـ) ومختصر العين لابي الحسن الحوفي (ت ٤٣٠ هـ) .

Scanné avec CamScanner

وهو أول من اخترع علم الموسيقى العربية وجمع فيه أصناف النغم المعروفة وكان السبّاق الى تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وعلله التي استفاد منها كثيرًا تلميذه سِيبَوَيْه الفارسي - أبو بِشر عمرو بن عثمان المتوفى سنة ٧٩٦ للميلاد- في كتابه المشهور .

ولد أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمر بن تميم الفراهيدي أو الفرهودي - نسبة الى بني فرهود وهم حي من يَحْمَد من الأَزْد - في عمان إما في نهاية القرن الأول الهجري وإما في بداية القرن الثاني وتوفى بالبصرة نحو سنة ١٧٥ للميلاد - وقيل سنة ١٧٠ أو ١٦٠ - وله أربع وسبعون سنة . ويروى أن الخليل كان يحجّ سنة ويغزو سنة واشتهر بزهده وانقطاعه الى الله والعلم ، فكان لا يبالي بمتاع الدنيا ويقنع بالقليل من العيش لقوله الى رسول سليمان بن علي وَالِي الأهواز :

أبلغْ سليمان أنّي عنه في سَعَة ... وفي غِنى غير أنّي لست ذا مَالِ
سَخّى بنفسيَ أنّي لا أرى أَحَدًا ... يموت هَزْلاً ولايبقى على حَالِ
فالرزق عن قَدَر لا العجز يَنقُصه ... و لايزيدك فيه حَوْل محتَالِ
والفقر في النّفس لا في المال تعرفه ... ومثلُ ذاك الغنى في النفس لا المالِ
والمال يَغشى أُناسا لا أصول لهم ... كما تُغشّى أصول الدِّنْدَن البَالِي

وقد درس الخليل علوم الحديث واللغة على أبي عمرو بن العلاء ، و أيوب السختياني، وعاصم الأحول وغيرهم . وعنه أخذ الأصمعي ، و النضر بن شميل ، وأبو فيد مؤرج السدوسيّ وعليّ بن نصر الجهضميّ . وكان الخليل غاية في الذكاء والفطنة وبحرا فيّاضًا بالعلوم . ومن كتبه المصنّفة المذكورة في فهرست ابن النديم : << كتاب العين ، وكتاب النغم، وكتاب العروض ، وكتاب الشواهد ، وكتاب النقط والشكل، وكتاب فائت العين ، وكتاب الايقاع ، وكتاب الجمل وكتاب في العوامل >> .

ولعلّ معرفته بالشعر الجاهلي والاسلامي وقرضه له - إذ كان من الشعراء المقلّين - هما اللذان ساعداه على ايجاد طريقة لوزن أشعار العرب وحصرها في خمسة عشر بحرا . و لكن

Scanné avec CamScanner

لا أحد من علماء العروض اليوم ومؤرخيه يعرف بالضبط كيف اهتدى الى ذلك وعلى أيّ شيء اعتمد : أعلى التنغيم (١) واستعماله كمعادل عروضي أم من وقع مطرقة على طست كما جاء في الروايات ؟

على أنّ ياقوت الحمويّ يورد في ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب رواية صحيحة حين يقول : << وروي أنه - أي الخليل - كان يقطّع بيتا من الشعر فدخل عليه ولده في تلك الحالة فخرج الى الناس وقال إن أبي قد جُنّ فدخل النّاس عليه وهو يقطّع البيت فأخبروه بما قال ابنه فقال له :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني ... أو كنت أجهل ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني ... وعلمت أنك جاهل فعذرتكا >>

والتقطيع هنا يعني وزن الشعر وزنا موسيقيا على أساس تقسيم البيت الى وحدات صوتية مؤلفة من تعاقب الحركات والسكنات (٢) ، تم قياسها على الأوزان أو الصيغ الصرفية

---

(١) يُزعم أن الخليل استقى قانون الأسباب والأوتاد من شيخ كان يُعلّم صبيًا له أصول النظم بطريقة التغيم الآتية :

نعم لا نعم لا ... نعم لا ... نعم لا
فعولن مفاعلين ... فعولن ... مفاعلين

نعم : تشكل الوتد المجموع .
لا : تشكل السبب الخفيف .

(٢) وتُمثّل الحروف المتحركة بضمة ، أو فتحة أو كسرة بشرطة افقية (-) أو عمودية (|) والحروف الساكنة بسكون (٥) . والتقطيع يعني التفعيل أي تجزئة البيت على حسب الميزان العروضي لمعرفة بحره . والمعوّل في التقطيع على اللفظ لا على الكتابة ، فما نطق به يوزن ولو لم يرسم (كألف الرحمن ، والله ، وأسماء الاشارة ولكن المخففة والمشدّدة) وما رُسِم و لايلفظ به أهمل (كألفات الوصل ، والف الفرق التي بعد الواو و واو عمرو) . أما التنوين والمدّ (نحو : آ) و المدغم ، فيمثّل بحرفين أولهما متحرك وثانيهما ساكن في المنوّن والممدود ونقيض ذلك في المشدّد .

Scanné avec CamScanner